



الداي أحمد خوجة: جوانب من حياته السياسية، مآثره وعلاقته ببلده الأم تركيا

مؤيد المناري*

الملخص

قمنا في هذا المقال بالتركيز على دراسة شخصية الداي أحمد خوجه، داي الإيالة التونسية بين سنتي (1640 - 1647). تميزت فترة حكم هذا الداي بمعطيين أساسيين؛ تجدرّ الحكم العسكري الموالي للأتراك العثمانيين وفي نفس الوقت بداية ظهور نمط جديد أدى إلى اقتسام الحكم بين منصب الداي والباي، الحاكم الجديد للبلاد. وبالموقف على دراسة الحياة السياسية لهذا الداي، ظهر لنا من المهم إدراج بعض الملاحظات المتعلقة بمنصب الداي، كتصحيح مفهوم مصطلح الداي وتبين طبيعة علاقته بمركز الحكم العثماني بالأستانة. هذا الداي الموالي للأتراك لم يتأخر ولو لحظة على تنفيذ أوامر أسياده الأتراك بالآلات والرجال وذلك لنصرهم في حرب جزيرة كريت ضدّ الجنويين والمالطيين. هذه الحرب البحرية كشفت عن الدور الأساسي الذي لعبه الداي أحمد خوجه، في الفوز بالمعركة من ناحية، وعن دور بحارة قراصنة أوجاق الغرب من ناحية أخرى. كما كشفت عن مساهمة البحارة التونسيين في صناعة وتطوير تقنيات صناعة السفن البحرية العثمانية ودورهم الأساسي في تطوير صنع الغليون في الترسانة العامرة بإسطنبول. وأخيرا وبالرجوع إلى دراسات ووثائق عثمانية جديدة في علاقة مباشرة بالداي أحمد خوجه، اكتشفنا وجود وقف بمدينة سينوب التركية من تأسيس هذا الداي وقد تمثل في مقدار من المال خصص كوقف لترميم مياه صرف جامع علاء الدين كيقباد بمدينة سينوب، مسقط رأس الداي أحمد خوجه ومكان إقامة فاطمة ابنة عمته، والتي تقدمت بدعوى قضائية للمحكمة الشرعية ضدّ وكيل الوقف لتتصرف في إرث قريبها أحمد كحق مكتسب.

الكلمات المفتاحية: الداي أحمد خوجه، وقف جامع علاء الدين قيقوباد، سينوب، معركة كندية، البحرية التونسية، أوجاق الغرب، الدايات، القرن السابع عشر.

Résumé

Le Dey Ahmed Khûja, sa vie politique, ses œuvres et ses relations avec son pays natal, la Turquie.

Notre article s'intéresse à la personnalité et au règne du dey Ahmed Khûja (1640 – 1647). Son administration de la régence est marquée à la fois par la suprématie d'une oligarchie militaire restée attachée et fidèle aux Ottomans, ainsi que l'élargissement des prérogatives du bey mouradite qui a vu son autorité sur le pays se renforcer. En s'appuyant sur la carrière politique d'Achmed Khûja, nous avons avancé quelques remarques concernant le terme turc dayi et les rapports de ces chefs de province avec le pouvoir central ottoman. Ceux-ci obéissaient toujours

* أستاذ عرشي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، قسم علم الآثار.



aux ordres de la Porte, ainsi Ahmad Khûja envoya des armes et des hommes comme contribution à la guerre de la Crète. La marine tunisienne et les marines des deux autres provinces maghrébines ont joué un rôle déterminant dans cette guerre contre les Génois et les Maltais. En s'appuyant sur des recherches récentes et sur une nouvelle documentation, l'article aborde, dans un deuxième temps, la question d'un waqf du dey Ahmed Khûja au profit de la mosquée « Alâeddin Keykubad » à Sinop, sa ville natale.

Mots clés : le dey Ahmed Khûja, waqf de la mosquée Alâddine Keykubad, Sinop, guerre de Candia, la marine de Tunis, les régences maghrébines, les deys, le XVII^e siècle.

Abstract

The Dey Ahmed Khûja, his political life, his works and his relations with his native, Turkey.

Our article focuses on the personality and reign of dey Ahmed Khûja (1640 - 1647). His administration of the regency was marked both by the supremacy of a military oligarchy that remained attached and faithful to the Ottomans, and by the extension of the prerogatives of the Mouradite bey, who saw his authority over the country grow stronger. Based on the political career of Ahmed Khûja, we have made some remarks about the Turkish term dayi and the relationship of these provincial chiefs with the central Ottoman power. They always obeyed the orders of the Gate, so Ahmad Khûja sent arms and men as a contribution to the war in Crete. The Tunisian navy and the navies of the two other Maghreb provinces played a decisive role in this war against the Genoese and Maltese. Based on recent research and new documentation, the article then addresses the question of a waqf of the dey Ahmed Khûja in favour of the "Alâeddin Keykubad" mosque in Sinop, his native city.

Keywords : the dey Ahmed Khûja, waqf of the Alâddine Keykubad mosque, Sinop, the war of Candia, the navy of Tunis, the Maghreb regencies, the deys, the 17th century.

المراجع لذكر المقال:

مؤيد المناري، « الداي أحمد خوجة: جوانب من حياته السياسية، مآثره وعلاقته ببلده الأم تركيا », السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية [نسخة الكترونية], عدد 9, سنة 2020.

الرابط: <http://www.al-sabil.tn/?p=17431>



مقدمة

لم تحسم الدراسات التي خصّت مدّة حكم الدايات في مسألة مدى تبعيّة تونس لحكّام الأستانة العثمانيين ومدى تغلغل الثقافة التركيّة في هذه الإيالة في تلك الحقبة الزمنيّة. فهناك من يرى أنها لا تزال تحت وطأة سلاطين الدولة العثمانيّة وهناك من يعتبر أن حكم الدايا هو شكل من أشكال بداية الانفصال والاستقلال عن التبعيّة. فلو ننظر لهذه الفترة عبر دراسة مجهرية تعتمد على تحليل الحياة السياسيّة لإحدى الشخصيات التاريخيّة الفاعلة ضمن هذا النظام الجديد، ونحاول من خلال بيوغرافية هذه الشخصية فهم حقيقة بعض ملامح فترة الدايات والتركيز على دورهم الهام في سير تاريخ اللحظة التي عاصروها.

نسّلط الضوء في هذا المقال على شخصيّة فعّالة في العهد العثماني بتونس، وتحديدًا عهد الدايات، العهد الذي يمثّل صورة حقيقيّة لمواصلة تحكّم الأتراك المطلق في تسيير البلاد قبل ظهور حكم العائلات النصف مستقلّة كالمرايين والحسينيين الأوائل. هذه الشخصية هو الدايا أحمد خوجه سادس دايات تونس والذي آل إليه منصب الدايا بعد تجذّر النظام، من سنة 1640 إلى سنة 1647، لفترة تبدو وجيزة في الظاهر لكنّها ثقيلة في الباطن. لقد أفردنا هذا الدايا بدراسة منوغرافية حاولنا فيها توضيح وزنه السياسي والعسكري في علاقة بمحيطه الداخلي والخارجي. فمن هو هذا الدايا؟ وماهو تأثيره في مجريات أحداث المتوسط؟ وماهي علاقته ببلده تركيا وفي ما تتمثل مآثره بالإيالة التونسية وخارجها؟

1. الدايا أحمد خوجه في المصادر التاريخيّة

1.1. ملاحظات عن حكم الدايات

اتفق جمهور الباحثين في التاريخ الحديث للإيالة التونسية على أن بداية حكم الدايات بتونس يبدأ بعد فتنة البولكباشيّة الواقعة في أكتوبر من سنة 1591، تلك الحادثة التي أنهت سلطة الباشاوات ومكّنت الدايات وهم فئة عسكر الإنكشاريّة، من تسيير الحكم مباشرة من الديوان، أين تجتمع المحكمة الشرعيّة والسلطة العسكريّة في آن واحد. ورغم أن هذه الحادثة وصفت من قبل بعض المؤرخين بـ"الثورة" على حكم الباشاوات الأتراك وبداية تأسيس لحكم محلي¹، فإنّ الأمر لازال يتطلب التحري من مسألة وصفها بالثورة على حكم "الباشاليك" في اتجاه تأسيس لحكم مستقل حتى ولو كان صنّاعه أصحاب ثروة ماليّة طائلة ومتنفذين بمردود القرصنة، ففي تلك الفترة لا تزال أوامر السلطنة العثمانيّة نافذة وحكم تونس في تبعيّة مطلقة لسلطة الأتراك، فلا يعد تأمر الإنكشاريّة من صغار الضباط على رؤسائهم "البلوك باشي" إلّا صراعا داخلياً بين جنود العسكر وانقلاباً أو فتنة اندلعت في صلب المؤسسة العسكريّة². ويبدو أنها كانت بإيعاز من السلطان العثماني مراد الثالث الذي تفتّن لفساد الباشاوات وتعيينهم التعسفي للأغوات، وتشديد المعاملة مع أهل البلد وصغار الضباط السامين في الجيش الإنكشاري حيث ذكر ابن أبي دينار في هذا الصدد أن الباشاوات "ساروا في أحكامهم بعنف على من دونهم في العسكر ووقع منهم الجور"³. وهذا ما يمكن استنتاجه من فرمانات المهمة دفترية التي وجهها الديوان الهاميويني لقضاة الإيالات لاستدعاء بعض الباشاوات

¹ Mohamed-Hédi Chérif, "La déturquisation du pouvoir en Tunisie du pouvoir en Tunisie : classes dirigeantes et société tunisienne de la fin du XVI^e siècle à 1881 », *cahiers de Tunisie*, n°117-118, 1981, p. 179.

² نساند رأي الأستاذ الأستاذ عبد الحميد هنية من أن حادثة 1591م هي انقلاب في صلب تراتبية الجهاز العسكري. هنية عبد الحميد، 2012، ص 106.

³ ابن أبي دينار، 1967، ص 200.



من الفاسدين ومحاسبتهم⁴. ويبدو أن مكيدة تصفيتهم كانت منظمة، وتم تعويض مسؤولية النظر في شؤون كبار العسكر للداي بعد الفتك بهم.

ولقب الداوي لم يقع استحداثه بعد الفتنة لكن كان لقبا موجودا ضمن تركيبة العسكر التركي منذ سنة 1574 ويخص فئة من الإنكشارية، وهذا ما جاء في كلام ابن أبي دينار عند تطرقه لفتنة البلكباشية: "واتفقوا على تقديم واحد من الملقبين بالداوي"⁵ ثم يضيف أنهم لما تحزبوا أحزابا لم يتم لهم أمرا من كثرة داياتهم⁶ أي أن لقب الداوي كان متواترا من قبل ولم يظهر بعيد 1591 وكانوا فئة من عسكر الإنكشارية تحت البلوكباشيين من الأورطلر (Ortalar) بين الشربجي باشي والأوده باشي. أما عن معنى اللقب، فهي كلمة تنحدر من اللغة التركية القديمة وهي صفة عسكرية وقد تفتن لذلك المؤرخ روبرت منتان باقتضاب شديد⁷. وللداوي في اللغة التركية خمسة معاني؛ الأول هو الخال، أي أخو الأم، والثاني اسم يتداوله الشبان فيما بينهم للمناداة في الدارجة التركية. والمعنى الثالث اسم لفئة من الحراس الساهرين على أمن المدينة أي "الحامي" ويقال دايات الإنكشارية (Yeniçeri dayıları). والمعنى الرابع هي صفة تطلق على محاربي "الألبك والألبلر" (Alpler) وهو المحارب التركي الأناضولي القوي والشريف والذي له عادة اصطياد النسر ورشق ريشه في عمامته وربط السيف في معصمه. أما المعنى الخامس والأخير فهو اسم يدور حول صورة البحار - القرصان - المجاهد الذي يتميز بمهارات قيادة السفن والركوب في البحر ليلا وفي أوقات العواصف والمتمرس على القرصنة والذي احتك وتعامل في البحر مع القراصنة الاسبان والبنديقيين والمالطيين والإفرنج والأنقليز⁸. وهي الصفة التي طغت على عسكر دايات تونس من الانكشارية والذين سيكوّنون فيما بعد أوليغارشية حاكمة تعترف بالولاء للسلطان العثماني.

ومن الغريب ألا يعرج صاحب كتاب المؤنس على أصل الدايات عند تناوله لتراجمهم. واقتصر على ذكر أحوالهم وحوادث عاشوها وبعض صفاتهم ومآثرهم، في حين أن الوزير السراج اجتهد محاولا التعرض لأصولهم ما أمكنه عن طريق السماع وتوثيق الرواية الشفوية نقلا عن من يثق به. لن نتعرض في هذا المقال لدراسة فترة حكم الدايات، بل نودّ أن نسوق بعض الملاحظات، من خلال بعض الإشارات المصدرية، حول مدى تبعية الدايات لسلطة الأتراك والحديث عن محاولة تأسيس الحكم المحلي وبناء نفوذ مركزي سياسي في هذه الفترة.

نلاحظ من خلال الأسماء أن أغلب الدايات هم من أصول تركية، فعثمان داي ويوسف داي وأحمد خوجه ومحمد ومصطفى لاز⁹ ومصطفى كره كوز ومحمد أوغلو ومحمد بيشارة (biçare)¹⁰ وأحمد شلبي ومحمد طاباق¹¹ كان جميعهم من أصل تركي. ويعتبر عثمان داي هو من أعيان جند الترك وكان ينعت أيضا بقره عثمان¹². ويوسف داي هو ابن مصطفى التركي هو إنكشاري من عسكر طرابلس الغرب قدم لتونس وانخرط في صلب الجهاز العسكري. ثم

⁴ توفيق البشروش، 2006، ص 19 - 185.

⁵ الوزير السراج، 1984، ص 341.

⁶ ابن أبي دينار، 1967، ص 201.

⁷ Robert M., 1959, p. 323.

⁸ Kubbalı Lugatı sözlüğü.

⁹ لاز "Laz" هو لقب يعني كل من له أصول قوقازية أو كل من ينتمي إلى منطقة القفقاس التي تقع بين البحر الأسود وبحر قزوين وتحديدا من لازستان التي تقع على ساحل البحر الأسود.

¹⁰ لقب تركي يعني المسكين.

¹¹ لفظ طاباق هو تحريف لكلمة الدباغ العربية. يذكر الوزير السراج أن محمد طاباق أنه تعاطى في صغره لما كان ببر الترك صنعة الدباغ عن رجل أندلسي. السراج، 1984، ص 497.

¹² Leila Temim Blili., 2012, p. 247. Samih Aziz I., 1937, p. 222. Voir aussi: André R., 2006, p. 56.



ذاع صيته ليدخل الديوان ويصبح المؤسس لديار الأوضباشية التي ضمت مائتي دار¹³. ومنهم من مارس القرصنة في البحر ليكونوا ثروة طائلة ساعدتهم إلى جانب صفتهم العسكرية في الاستئثار بمنصب الداى مثل محمد طاباق الذي كان له "اقتدار عظيم على رئاسة البحر في الغلائط والمراكب وكان له خبرة عظيمة برمي المدافع"¹⁴.

لقد أطلقت المصادر على هذه الفترة تسمية "الدايلار" وهو المصطلح التركي لتقسيم الحقبة العثمانية في إيالة تونس وتنتسب لتسمية الداى في صيغة الجمع (Dayılar)، حيث ذكر الوزير السراج أن الداى يونس "كان أحد الدايلار الأربعين الذين تقدم ذكرهم"¹⁵. وهي فترة لازالت تعتبر فيها إيالة تونس مرتبطة في حكمها ونفوذها السياسي بقرارات الدولة العثمانية الواضحة عين المراقبة والتسيير من بعيد عن طريق الوصاية. وهذه التسمية تواجدت أيضا بطرابلس الغرب لتنتع الفترة السابقة لحكم القرمليين، ولتميزها عن فترة حكم الباشاليك والبكربكلر وفترة الآغاليك بإيالة الجزائر.

ذكر الوزير السراج أنه في أيام عثمان داي ورد قبطان باشا لينظر في القلاع الثلاثة تونس والجزائر وطرابلس الغرب¹⁶ وقد فزع عثمان داي وأسرع لملاقاته وخدمته وسماع وتلبية طلبه. عكس ما حصل للطاهر باشا مبعوث السلطنة العثمانية عندما أراد الذهاب للجزائر عن طريق تونس وتم منعه من قبل شاكير صاحب الطابع¹⁷. ورغم أن الداى أسطا مراد من المماليك "فقد خشي عليه في أول الأمر أن لا يتفق عليه العسكر وأن يأبى الترك على تقديمه على أنفسهم لأنه أول علج تولى دايا"¹⁸ فإنه لما تم له أمر الولاية سار سيرة جيدة على خدمة الأتراك فعندما جاء خبر أخذ بغداد على يد السلطان مراد، "أمر الداى بتزيين المدينة فزُيّنت سبعة أيام وكانت زينة من أبدع ما شوهد في تونس وكانت المدينة أي تونس تفرح في دعة وهناء". كما دار على ألسن أهل الحاضرة تونس في تلك اللحظة مقولة طريفة وهي "حصول مراد من السلطان مراد للداى مراد"¹⁹ للتعبير عن التبرك بحكم الداى مراد. وكذلك الداى الحاج مصطفى كاره قوز كان من العسكر أوضباشيا صاحب مراكب وجليونات قرصنة ورغم تمركزه في منصب الداى وثرائه تمت ازاحته من قبل الأتراك لتعجرفه وظلمه للأهالي فقد ذكر ابن أبي الدينار أن اتفاق جماعة من الأكابر ووافقهم بعض رؤساء الوقت، ووقعت تصفيته من قبل الأتراك على يد أحمد الصنابلي والحاج حسين شاقال (çakal) وذلك لأكثاره من الظلم والجور واقدامه على سفك الدماء والمس بأعراض الناس²⁰.

تحتفظ أحكام المهمة دفترى بأرشفة رئاسة الوزراء باسطنبول بأوامر أرسلت إلى بعض من دايات تونس تنم على سريان بعض الأوامر حتى في ظل الحكم المرادي، وإرسالها بإسم الداى وليس بإسم الباى هو دليل على تواصل متانة العلاقة بين الداى ومركز الحكم العثماني²¹. يرجع الحكم الأول لسنة 1102 / 1690 وقد تم إرساله مباشرة للداى

¹³ الوزير السراج، 1984، ص 413.

¹⁴ الوزير السراج، 1984، ص 497.

¹⁵ الوزير السراج، 1984، ص 413.

¹⁶ الوزير السراج، 1984، ص 346.

¹⁷ ابن أبي الضياف أحمد، 1999، ج 3، ص 163.

¹⁸ الوزير السراج، 1984، ص 375.

¹⁹ الوزير السراج، 1984، ص 377.

²⁰ ابن أبي دينار، 1967، ص 216.

²¹ سنشهد بداية من نهاية القرن السابع عشر أسلوبا جديدا في مقدمة الرسائل والأحكام العثمانية الموجه للإيالة من الباب العالي وهو تواتر استعمال تلك الجملة التي تذكر تقريبا كل رجال الدولة ذوي المكانة السياسية والروحية ومن تقلد منهم أعلى الرتب بما فيهم الداى الذي تراجع نفوذه السياسي على حساب الباى. مثلا : إلى والي تونس والداى والباى والشيخ المفتي والقاضي والأعيان من الشيوخ والعلماء والصلحاء. "تونس بكربكسينه ودائسينه وبايسينه وشيخلرينه ومفتيسينه وقاضيسينه وساير علماسنه حكم كه".



شعبان بعد الشكوى التي تقدّم بها الفرنسيون للسلطان العثماني حول افتكاك وسلب السفن الفرنسية في البحر من قبل بحارة وقراصنة إيالة تونس²². أمّا الحكم الثاني المؤرخ بجمادى الأولى من سنة 1103 / 1691 فهو أمر موجّه للداي عليّ يأمره بالقدوم بسرعة إلى السدّة العليّة، بعد تعيين داي آخر يتم انتخابه في الديوان، وذلك لحل مسائل تتعلّق بخصوصيات لم يذكر الحكم ماهيتها²³.

وخلاصة القول أن فترة حكم الدايات تتميّز بالولاء المطلق لسلطين القسطنطينيّة فقد أطلق كتّاب الديوان الهمايوني على إيالة تونس في الوثائق العثمانية المؤرخة بنهاية القرن السابع عشر تسمية "دار الجهاد وطن تونس"²⁴، كما أن الدايات رغم اختلاف أصولهم وثراء بعضهم من مردود القرصنة فإنهم عساكر من أبناء خدمة السلطنة العثمانية على حد قول الوزير السراج²⁵. وأن الحديث عن محاولة استقلال الدايات بالحكم المركزي للإيالة لا يزال مبكراً على الأقل في هذه المرحلة. والأقرب إلى المنطق هو الحديث عن بيروقراطية عسكريّة مارست النشاط القرصني وخلقت جوا من الديمقراطية الملكية العسكريّة تعكس صورة مصغّرة لتصرفات السلطين العثمانيين بالأستانة، وساهرة على أحوال الرعيّة التونسيّة مع تشريك بعض المماليك والعلوج من أصول أوروبا الشرقية في الحكم وكلّ هذا تحت لواء الدولة العثمانية الحامية والأمرة والناحية آنذاك²⁶.

2.1. الداوي أحمد خوجه : بين الولاء التركي واحتواء البايليك للنفوذ والسلطة

أما عن الداوي أحمد خوجه فهو من أصل تركي ويكنى بأوزون أحمد²⁷ أي أحمد الطويل وذلك لطول قامته. ولد الداوي أحمد خوجه ببلدة سينوب من صنجق قسطنونو على ضفاف البحر الأسود (الصورة 1)، ولم يغفل المؤرخ الوزير السراج عن ذكر مسقط رأسه بقوله : " وهو صنبلي منسوب إلى بلد صنباب"²⁸. لا نعرف الظروف التي دفعت به للقدوم إلى إيالة تونس، لكن الوزير السراج يقدّم رواية اتفق عليها جميع الحافظين لسير النافذين في عصره، هو أن الداوي أحمد خوجه كان قد دخل حماما بسينوب وجلس بين يدي مدّلك "طياب" له خبرة بفن الفراسة، فقال له : يا هذا إنك إذا خرجت من بلدك هذه ستتولى سلطنة. فلما خرج من الحمام سافر إلى إسطنبول فوجد بها غلائط تونس فركب فيها وقدم تونس²⁹.

²² المهمة دفترى، دفتر عدد 101، ص، 57. حكم مؤرخ بسنة 1102 / 1690.

²³ المهمة دفترى، دفتر عدد 101، ص 57. حكم مؤرخ بجمادى الأولى من سنة 1103 / 1691.

²⁴ المهمة دفترى، دفتر عدد 105، ص 75. حكم مؤرخ بسنة 1106 / 1694.

²⁵ الوزير السراج، ص 413.

²⁶ نشاط الأستاذة ليلى البليلى تميمي في رأيها عندما قالت أن اعتبار فترة الدايات بتونس حكم ذاتي هو أمر مبالغ فيه:

Temimi Blili Leila, 2012, p. 344.

²⁷ ابن أبي دينار، 1967، ص 210.

²⁸ الوزير السراج، 1984، ص 396.

²⁹ الوزير السراج، 1984، ص 396.



الصورة 1. قلعة سينوب، ق 19. المصدر: أرشيف مكتبة كمال أتاأورك.

ولا تخلو هذه الرواية من التلفيق الخرافي الذي وثّق عمدا لكتابة بيوغرافية الداوي فلا يجب أن يكون قد قدّم بطريقة حقيرة وقد استوجب إعطاء الثوب البطولي والتجميلي والمتمثل في تكهن "الطيب" بمستقبل الداوي قبل قدومه. ويبدو أن وصول أحمد خوجه إلى تونس كان إما عن طريق ممارسة تجارة بحرية أو عن طريق تجنيد عسكريّ خصّ وجهة الإيالة وساق الإنكشاري أحمد بن موسى بعد إثني عشر سنة من قدومه لمنصب الداوي.

يذكر ابن أبي دينار أن الداوي أحمد خوجه كان في أول أمره خوجه الديوان وله سيرة حسنة في التعامل مع أفراد العسكر. ويضيف أيضا أنه أصبح فيما بعد "سردار العسكر"³⁰ أي كبيرهم. ويذكر حسين خوجه في ذيل بشائر أهل الإيمان أن الداوي أحمد خوجه تولى خطة "دفتر دار" بالديوان أي المسؤول على المعاملات المالية، فقد كان يجلس لدفع المرتب على حد قول الوزير السراج³¹، وهذا قبل أن يولي دايا باتفاق من العسكر³². وصفت المصادر التاريخية الداوي أحمد خوجه على أنه كان ذا نباهة وفطنة وأنه كان حسن المعاشرة وطيب المعاملة، فلم يختلف اثنان على تولّيه منصب الداوي بعد أسطا مراد حسب ابن أبي دينار، ونفهم من بعض الإشارات المصدريّة أنه كان يميل إلى التدين وله في علوم الدين والفقه معرفة فقد كان مقربا من إمامه الشيخ أبو عبد الله برناز³³ الفصيح باللغة التركية ولا يتصرف إلا بمشورته.

تزوج الداوي أحمد خوجه من تركية ابنة الحاج محمد أرنوط التي توفيت سنة 1075 / 1665³⁴، وذلك رغبة منه في المحافظة على النسل التركي (انظر الرسم التوضيحي 1). هذا ويفهم من المصادر أن الداوي أحمد خوجه لم يستطع التخلّي على الثقافة التركية التي تربّي عليها فقد كان الفقراء والأيتام يقبلون يده عند ملاقاته على الطريقة التركية

³⁰ ابن أبي دينار، 1967، ص 241.

³¹ الوزير السراج، 1984، ص 396.

³² حسين خوجه، 1975، ص 93.

³³ هو لقب تركي ويعني من له أرنبية كبيرة على أنفه.

³⁴ Ahmed S., 2010, p. 66.



لتقريب يد السلطان. كما أن استحضار السيد الخضر من قبل إمامه الشيخ برناز في مسألة تتعلق بعقد نكاح ابنه محمد شلبي³⁵ لخير دليل على تجذر الثقافة التركية في الإيالة التونسية في ذلك الزمان³⁶.

يشير ابن أبي دينار عند حديثه عن تمكّن أحمد خوجه من مؤسسة العسكر بمدينة تونس ونفاذ كلمته فيقول ابن أبي دينار "واستقامت أحوال أحمد خوجه وكان مطاعا في عسكره بحيث أنه استنفر العسكر إلى غار الملح لأجل واقعة يطول شرحها فلم تكن إلا ساعة من النهار حتى خرج العسكر عن آخره ولم يبق بالمدينة أحد وهذا من نفاذ أمره"³⁷. لم يذكر صاحب كتاب المؤنس تفاصيل هذه الحادثة التي جدّت سنة 1057 / 1647، قبل وفاة الداوي أحمد خوجه بأيام قليلة. لكنّه أراد الإشارة إلى عظمة شخص الداوي ونفاذ كلمته في صفوف العسكر. وهذا يذكّرنا بتصرفات سلاطين الترك وتنفيذهم في عسكر الإنكشارية العثمانية. وكان الداوي أحمد خوجه الذي كان "سردار العسكر" ثم أصبح دايا، وكأنه يتقمص جبروت شخصية السلطان العثماني وينتهج نحو تقليد تصرفاتهم وأفعالهم. فأغلب السلاطين الأتراك مروا بالتراتبية العسكرية في صلب وجق الإنكشارية في مرحلة الأمير - ولي العهد (*Şehzadelik*) ودائما ما كانت بينهم وبين العسكر خلافات تحدّي وإثبات وجود وحدود تصل إلى قطع رؤوس آغة الإنكشارية أو الشرباجي باشي أو حتى سردار العسكر. كما أنّ عدم موافقة كبار العسكر على ركوب الباي حمودة باشا المرادي في بداية أمره مائتي صبايحي كان قد طلبها من الداوي أحمد خوجه³⁸ لخير دليل على سيطرة العسكر الإنكشاري التركي المطلقة وتبني النزعة العسكرية التركية في حكم البلاد في فترة حكم الدايات.

يورد الوزير السراج واقعة وهي أن جندياً إنكشارياً افتك من بائع قثاء قطعة بأقل من ثمنها وضربه، فأرسل الداوي أحمد خوجه من أتاه بالجندي وقال له "يا هذا هل تعلم أن هؤلاء الباعة عليهم قائد ملتزم وإذا انفتح باب الغضب والجور بطلت الباعة وإذا تعطل القائد انقطع المال المرتب للعسكر، وإذا انقطعت المرتبات تأتيني إمّا أبيع كُرّي أو تسبب في قتلي"³⁹. وكُرْك (*Kürk*) هو مصطلح تركي ويعني المعطف المصنوع من جلد الحيوان والمزّين بالفرو وهو لباس السلاطين العثمانيين وكان يضرب به المثل في الثراء لدى الأتراك وكان رمزا للحكم، ويرسل كهديّة لدايات تونس وباياتها على أساس خلعة همايونية. وحرف الياء "ي" الذي ألحق لحرف الكاف ليست بياء الملكية بل هي ياء تجعل الاسم مفعولا به في اللغة التركية. وهنا ربّما كان الداوي أحمد خوجه قد خاطب الإنكشارية آنذاك باللسان التركي وتمّ

³⁵ كان محمد بن الداوي أحمد خوجه يميل إلى العيش على النمط الأوروبي ومعجب بالديانة المسيحية إلى حد أنه اقتبس اسم دون فيليب وسافر إلى صقلية ليتم تعميده على يد قس في بالارمو ثم انتقل لروما ومنها لإسبانيا ثم رجع لتونس وأراد الحكم من أبيه. لقد كان محمد شلبي بن الداوي أحمد خوجه متنفذا ثريا بمردود القرصنة البحرية ومنفتحاً على الدول الأوروبية بواسطة التبادل التجاري الحر وعلاقاته مع أمراء الغرب المتبينة. يذكر البحار الفرنسي "قلان بوناي" الذي كان حياً سنة 1809، أنه لما تمّت قرصنته في البحر نقل إلى ميناء غار الملح وعند نزوله من السفينة أجبر على تقبيل قفطان سيده الذي يدعى حاجي محمد خوجه والمعروف بإسم "دوم فيليب" وهو ابن أحد الدايات. كما ذكر قلان بوناي أن حاجي محمد كان يعمل في مجال القرصنة وله كلمته في ديوان جند تونس ويمتلك ثلاثة سفن من الحجم الكبير وحوالي مائتين وخمسين عبداً من الأسرى ويملك زندالة وخمارة في مدينة تونس. لا يمكن التأكد إن كان حاجي محمد الذي أوردته الأسير قلان بوناي في مذكراته هو نفسه ابن الداوي أحمد خوجه أم لا. لأننا لا نعرف متى تم فعلاً تدوين المذكرات ولا قدر العمر الذي عاشه محمد شلبي بن الداوي أحمد خوجه. وإن كان شخصية مختلفة فنحن نرجح أن يكون حفيد الداوي أحمد خوجه، أي ابن محمد شلبي، ومحتمل أن يكون قد تأثر بأبيه وواصل فط عيشه باقتباس إسم "الدوم فيليب" أسوة بأبيه "دون فيليب"؟ كما أن هذه الشخصية تعكس لنا صورة دقيقة عن ثراء أبناء الدايات من مردود القرصنة وخاصة تأثرهم بالعادات التركية مثل تقبيل القفطان. انظر:

Galland A., 1810, p. 49.

³⁶ ولد سنة 1012 / 1603 - 1604 كان أبوه ممن حضر فتح حلق الواد فقد جاء في الأسطول العثماني صحبة سنان وكان في زي درويش، أي شيخ متصوف، استقر مع من استقروا من الأتراك في تونس وتولى الإمامة في ضريح سيدي علي بن زياد. الوزير السراج، 1984، ص 399، 400، 401.

³⁷ ابن أبي دينار، 1967، ص 212. ذكر الوزير السراج نفس الحادثة، ج2، ص 409.

³⁸ الوزير السراج، 1984، ص 408.

³⁹ الوزير السراج، 1984، 397.



توثيق الحادثة في مصادرها المتأخرة باللغة العربية. هذه بعض الإشارات التي تعكس مدى تأثر الإيالة في فترة الدايات بثقافة الأتراك، توقفنا عندها لنعكس خصوصية الداى وتقريب صورته لدى الباحثين.

ما يجب الإشارة إليه في الآن نفسه، وفي ما يتعلق بطبيعة الحكم في الفترة التي تهمنا، سنوات حكم الداى أحمد خوجه، أن هذا الأخير لم يكن في آخر أيامه يحكم الإيالة حكما مطلقا، فقد بدأ نجم الباى محمد المعروف بإسم حمودة باشا يلوح في الأفق وظهرت أولى العلامات التي تُعلن تراجع نفوذ الداى لحساب منصب "البايلىك" وذلك لأسباب داخلية ذات صلة بالتحكم في دواخل البلاد، وخارجية تمثلت في بداية وهن السلطة وكثرة الانقلابات العسكرية بالديوان الهمايوني التركي. منذ سنوات حكم يوسف داى، أوكلت مهمة قيادة المحلة لمراد كورسو ذلك المملوك الذي تربى بين يدي رمضان باى وكان مهياً في أعين الداى يوسف لمنصب قيادي. فكانت هذه الثنائية في القيادة والتسيير خطوة أولى لبداية انفلات الأمور من يد الدايات. ورغم تشبث الداى أحمد خوجه وإعادة إحيائه لمؤسسة الداى والتشديد على أثريتها وانتمائها الصريح للسلطنة العثمانية، وجد نفسه يقتسم الحكم مع الباى حمود باشا الذي "مهد البلاد" حسب قول ابن أبي دينار. فقد بدأ حمودة باشا المرادي يتقرب من الداى أحمد خوجه حيث ذكر ابن أبي دينار أنه لما تمت المحاسبة بين سليمان باى وحمودة باشا أهدى هذا الأخير كل أملاك سليمان باى التي تمت مصادرتها عوض المال والمتمثلة في غليون وزندالة وسانية برأس الطابية للداى أحمد خوجه عندما كان سردار العسكر⁴⁰. ورغم هذا التقرب فقد حصلت مشاحنة واصطدام بين الداى أحمد خوجه والباى الصاعد بسبب فتنة حميدة عاشور الذي قُتل على يد أحمد خوجه في ما بعد⁴¹. ويظهر أن سحب بساط الحكم من الدايات لحساب البايات تأكدت في هذه اللحظة. البايات، أولئك الذين تمكنوا من دواخل البلاد وأخضعوا القبائل الجنوبية وخاضوا معارك لتحيز المجال الترابي للإيالة، حربي 1614 و1628، مثّلوا قوة صاعدة سرعان ما وضعت يدها على شرايين البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فسنة 1640 كانت السنة التي ظهر فيها الباى حمودة زعيم البلاد عوضا عن الداى أحمد خوجه، الذي انشغل في خدمة نفسه مع الأتراك والاهتمام بأحوال سفينه وزاده المتأني من القرصنة. وربما تكون بداية تقهقر مجال القرصنة وتراجع مردودها وهشاشته - على حد قول الأستاذ عبد الحميد هنية- في بداية القرن السابع عشر أمرا ساهم أيضا في صعود البايات الواضعين أيديهم على الثروة الفلاحية والمنجمية للبلاد. يفسر صعود مؤسسة الباى أيضا على حساب الداى، بتعبير مجازي يتمثل في بناء "القنطرة" بينهم وبين رجال الدولة العثمانية، فقد حرص حمودة باشا وبعض ممن تلاه من البايات على إحراز الرتب الملكية وذلك بطلب لقب الباشا وعرض الهدايا الثمينة على الحضرة العثمانية. وقد عبّر صاحب المؤنس على هذا الهاجس الذي انتاب الباشا حمودة أفضل تعبير، بقوله " وطار صيته في البلاد الرومية [أي القسطنطينية] وبعث الهدايا الجليلة إلى الأعتاب السلطانية ... ودخل إلى الحضرة بشعار السلطنة وكان يوم دخوله يوما مشهودا تباشرت به أهل البلاد وباشر الولاية على أكمل حال"⁴². وهذه الشهادة هي إعلان واضح لبداية تجذر حكم البايات وحصر نفوذ مؤسسة الداى ذات الجذور التركية في بوتقة دون صلاحيات.

ولم يكن صعود المراديين (1640 - 1675)، لقيادة الإيالة التونسية مدعوما بعوامل داخلية فقط، بل ساعدت على ذلك الظرفية الصعبة التي تعيشها الدولة العثمانية من معارك واصطدام بين سلاطين القصر وآغوات وجق الإنكشارية. وكان طبيعة سير التاريخ وأحداث المتوسط حتمت هي أيضا بداية تبعثر المصالح التركية في الإيالات وظهور السلالات

⁴⁰ ابن أبي دينار، 1967، ص 211، 241.

⁴¹ ابن أبي دينار، 1967، ص 211.

⁴² ابن أبي دينار، 1967، ص 238، 239.



النصف مُستقلة عن مركز الحكم العثماني وبداية التحرر شيئا فشيئا نحو بناء نفوذ مركزي وتأسيس حكم ملكي موالٍ روحياً للسدة العلية على أساس الإشتراك في الحمية الإسلامية، ومؤسساً لأرستقراطية ملكية أسوة بالسلطان وحاشيته وقدسيته في عواصم الإيالات البعيدة. هنا يمكن القول أن الردّهات التاريخية الصعبة التي ميزت الحكم العثماني على طول القرن السابع، والتي تميزت بعدم استقرار وصراع على كرسي السلطنة وعصيان مستمر للإنكشارية الذين اقتحموا القصر في حادثة لا سابق لها. وما بات للاقتدار أن يسقط بين أيدي نساء السلاطين الذين يرشحون شاهزادتهم لتولي السلطة - رغم اعتراف المصادر بذلكاء صاحبة الاقتدار السلطنة كوسام والدة مراد الرابع وما يحسب لها في حسن تدبير وتسيير شؤون السلطنة⁴³ - كان لها أثر كبير على تراجع مؤسسة الداوي لتبدأ حركة التنصل ثم الاستقلال الكلي بالإيالة وبناء الشخصية التونسية وصيرورة نظام محلي تجذر مع حكم المشير أحمد باي. كما أن الصراع الذي نشب في البيت المرادي بين أبناء مراد الثاني كان في الحقيقة صراعاً بين صلاحيات الداوي والباي، فالداي أحمد شلبي والداي محمد طاباق كانوا من بين الشخصيات المتنفذة في هذا الصراع الدموي.

2. معركة كندية : الداوي أحمد خوجه ومامي جمل ودور غلائط أوجاق الغرب الثلاث

2.2. افتكاك قلعة كندية بجزيرة كريت

تعتبر معركة كندية تواصلاً للصراع البحري بين الأتراك والبنادقة الذي نشب منذ الربع الأول من القرن السادس عشر وتحديدًا سنة 1538 للسيطرة على جزر بحر إيجه. لم تكن أساطيل الحرب البحرية البندقية بالهينة، فقد كبدوا الأتراك عدّة خسائر بحرية وضيقوا عليهم الخناق وحاصروا بوغاز "تشنقلا" (Çanakale) المؤدي لإسطنبول مرارًا وتكرارًا. وفي أيام حكم السلطان إبراهيم بن أحمد الأول⁴⁴، قام بعض القراصنة المالطيين بقطع طريق سفينة عثمانية كانت متجهة إلى مصر أمام سواحل جزيرة كريت، وكانت محملة بالهدايا وكان يركبها آغة القصر سنبل آغة الذي كان قاصدا الحج عبر مصر. في الأثناء جهّز السلطان إبراهيم أسطولاً حربياً وعيّن عليه القبطان داريا يوسف باشا وطلب المدد العسكري البحري من أوجاق الغرب، تونس والجزائر وطرابلس الغرب. ويذكر الوزير السراجوفي هذا الخصوص، عند سرد أحداث سنة 1645، ما يلي : "وكان السلطان إبراهيم غضب على سنبل آغة دار السعادة وأرسله إلى مصر قاصدا الحج فحمل أثاثه في ثلاثة مراكب فأخذته أغربة مالطة وأغربة كندية، فجمع السلطان إبراهيم ما تحت طاعته من المراكب من جملتها مراكب الجزائر وتونس وطرابلس"⁴⁵.

تزامن هذا الطلب مع ولاية الداوي أحمد خوجه على تونس وقد عرّجت المصادر على بداية الحرب وطلب العون من داي تونس، فمثلا يذكر ابن أبي دينار أنه في "سنة خمسة وخمسين بعد الألف كان ابتداء العمارة لكندية وجاءت الأوامر السلطانية لقصد العسكر والمراكب إعانة للسلطان فندب أحمد خوجه الناس وجعل على أهل المدينة والربضين أموالاً لتجهيز المسافرين وعيّن جمعا من الرعية للسفر ولكل واحد جعل من ذلك المال مقداره ثلاثين كرونة لكل رجل وعيّن جملة من المساحي والفيسان والقفاف وبعثهم في المراكب"⁴⁶. تمت الاستجابة إلى الطلب من طرف الداوي أحمد خوجه ووصلت الامدادات البحرية في غرة جمادى الأولى من سنة 1055 / 25 جوان 1645 وتم فتح قلعتين من الجزيرة ومحاصرة قلعة خانية. تكلف بهذه المهمة القبطان داريا يوسف باشا الذي تمت ترقيته من

⁴³ Halil I., 2016, p. 80.

⁴⁴ السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد الأول حكم من 9 شباط 1640 إلى شهر أوت 1648.

⁴⁵ الوزير السراج، 1984، ص 316.

⁴⁶ ابن أبي دينار، 1967، ص 211.



السلحدار إلى رتبة قبطان بحر وحاصر جزيرة كريت من جهة قلعة كندية لمدة 54 يوما سقطت فيها قلعة خانية المستعصية بعد صراع طويل⁴⁷.

لن نتوغل في سرد تفاصيل المعركة وما يهمننا هنا هو الإجابة عن سؤال لماذا يطلب الأتراك العون والممدد من الداي أحمد خوجه ومن البحرية الحربية لأوجاق الغرب الثلاثة تونس والجزائر وطرابلس الغرب؟ لا يكفي أن نحفظ بالإجابة التي تقول أنهم إيلات يتبعون أوامر السلطنة العثمانية وملزومون بتطبيقها فهذا أمر غير مقنع لأننا لم نشهد للأتراك أصحاب القوة البحرية المدمرة، طلب العون من أحد عند فوزها بمعارك بحرية شهيرة في بحر سفيد وحتى معاركها لافتتاك جزيرة جربة وتونس التي تعتبر من أكبر الملاحم. فكيف لقوة بحرية مثلها أن تطلب العون من تونس بعد 70 سنة من ضمها لجغرافيتها؟

2.2. مساهمة بحارة أوجاق الغرب في تطوير تقنيات صنع سفن الترسانة العامة بإسطنبول

لقد اكتشف الأتراك بداية ضعف تقنياتهم البحرية وعدم صمود أسطولهم البحري في بداية معركة أخذ قلاع جزيرة كريت، ويكمن المشكل الأساسي في طبيعة الأسطول الحربي البحري، فاعتمادهم على القادس الكبير أي السفينة الكبيرة ذات المجاذف والتي تعرف باسم القادرغة (*Kadirga*) لم يعد يجدي نفعا أمام الأغرّة أو ما يعرف بالغليون (*Kalyon*) تلك السفن التي تعتمد على قوة الرياح بأشرعتها الكبيرة وسرعة مناورتها للقادرغة التي باتت ثقيلة الحركة. هنا وجد الأتراك أنفسهم أمام نقلة نوعية في التقنيات البحرية طورها البنادقة والمالطيون ونجحوا في جعل أساطيل العثمانيين تقف عند مراقبة السواحل فقط. لذا وبالرغم أن "الترسانة العامة" كانت مشغولة سنة 1645 بصنع 15 وتصليح 33 قادرغة، فقد تطلب الأمر اجتماع آغوات ورجال الدولة العثمانية لمناقشة عملية تأسيس ورشات لصناعة هذا النوع الجديد من الغليون. وعليه قام شيخ الإسلام عبد الرحمان أفندي باستشارة البحار والعالم بحروب البحر كاتب شلبي عن كيفية تحسين العتاد البحري وخاصة مسألة تراجع سفن القادرغة، فأجاب بأنه عند فتح تونس وجزيرة قبرص لم يعتمد ميرميان ورياس البحر إلا على القادرغة لا غير. هنا وجد الأتراك الحل في طلب العون من قراصنة وبحارة أوجاق الغرب وخاصة قراصنة تونس الذين طوروا سفن قرصنة سريعة شبيهة جدا بما يعرف بالغليون وهي تلك السفن التي أجمعت المصادر التونسية على تسميتها "أغرّة". وبعد سنة 1645 اجتمع السلطان والسلحدار وقبطان البحرية تحت قبة "قصر السباتشيلار" وسارع الأتراك بطلب النجدة والعون من الداي أحمد خوجه وأخذ قرار مشاركة أوجاق الغرب بأغربتهم والتي بلغ عددها في معركة كندية 26 سفينة شراعية حربية ضد البنادقة ومساعدتهم للعثمانيين.

لن نبالغ إذا قلنا أن البحارة التونسيين كان لهم دور كبير في انقاذ الأتراك من هجوم البنادقة والمالطيين فعلاوة على مشاركتهم في الحرب بسفنهم الخاصة تم انتداب بحارة منهم وتمكينهم من العمل في "الترسانة العامة" بإسطنبول وذلك لمهارتهم في صنع هذا النوع من السفن الجديدة الناجعة في الحروب البحرية. ففي عهد عثمان داي ظهرت لأول مرة المراكب الكبار والشواطى والبطاشات ببر تونس عوض الفراقط⁴⁸. كما أن الشكوى التي تقدّم بها سفير فرنسا إلى السلطان العثماني اثر أعمال البحارة والقراصنة التونسيين الذين قاموا بقطع طريق سفن الفرنسيين في

⁴⁷ Idris B., 2010, p. 41.

⁴⁸ الوزير السراج، 1984، ص 343.



البحر، وارسال السلطان فرمانا إلى بكربكي تونس سليمان باشا سنة 1108 / 1696 يؤكد قوة السفن التونسية على خوض الحروب البحرية ومواكبتها للتقنيات البحرية الحديثة⁴⁹.

في الأثناء تشير بعض المصادر التركية العثمانية إلى أن أسطول قراصنة أوجاق الغرب سئمو الحرب، وأثاروا غضب السلطان لغيابهم في بعض الأوقات الحرجة وعدم مشاركتهم في الحرب ضد أغربة المالطيين⁵⁰. كما أشار الوزير السراج لهذا الاضطراب الحاصل بين الأتراك وقراصنة أوجاق الغرب بقوله: " وجهز [الداى أحمد خوجة] جملة آلات حفر لإقامة المتاريس والألغام وكذلك في السنة التي تليها، ثم قطعت تلك العوائد بعد ذلك لما حلّ بالمسلمين من الحيف في التورك على ضعيف الحال"⁵¹. ورغم هذا التقاعس الذي لوحظ على بعض بحارة أوجاق الغرب أو مخالفتهم لقانون الحروب البحرية فإن الأتراك لم يتخلو على هؤلاء البحارة والقراصنة المهرة في مشروعهم لتأسيس ورشة جديدة داخل دار صناعة السفن "الترسخانة العامرة" باسطنبول، ألا وهو تكوين وجق صنع الغليون والأغربة السريعة، فقد فشلت أول محاولة لهم في صناعة مثال للغليون البندقي وغرقت في البحر. وبعد سنة 1682 حرّر قانون هذا النوع من الصناعة وأصبح يعرف بـ "ظهوري غليون ميري" أي وجق جديد لصناعة الغليون الميري (صورة 2).

لقد كان لبخارة وجق الغرب دورا أساسيا في تطوير التقنيات البحرية للأسطول العثماني من النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى حدود القرن الثامن عشر، وذلك بتشريكتهم في عمل دور الصناعة البحرية بالسدة العلية. ويبدو أن المالطيين كانوا على علم بالمهارات التي تميز بها بحارة تونس في الحروب والقرصنة وحتى صناعة الشواطي والأغربة السريعة، لذلك نفهم أن عملية هجومهم بمساعدة الأنقليز على مرسى حلق الوادي أيام حكم الداى أحمد خوجه كانت منظمة ومع سبق التردد، فتقارير الجوسسة البحرية أعلمتهم بمشاركة أغربة تونس في حرب جزيرة كريت، ولدرئ هذا الخطر المحدق بالقوى الصليبية اتحد المالطيون والأنقليز، وكان هجومهم سنة 1055 / 1645، موجها إلى المراكب والغلائط مباشرة بالحرق والتكسير: "وفي أول ولايته (الداى أحمد خوجه) جاءت أغربة مالطة ودخلت حلق الوادي وأخذت منه عدة مراكب أحدها مركب بوشاشية وحرقوا مراكب آخر وفعلوا فعلا عظيما"⁵². ويضيف الوزير السراج نقلا عن من يثق به أن الأنقليز قاموا بحرق إحدى عشرة مركبا منها واحدة سلافية. كما أورد رواية شفوية تقول بأن الأنقليز أطلقوا خمسة عشر ألف مدفعا حتي صار النهار ليلا من دخان البارود وأحرقوا المراكب المذكورة وكانت من أعظم المكائد⁵³.

وبالرجوع إلى قائمة أسماء البحارة الذين اشتغلوا في "الترسخانة العامرة" والتي تحمل تاريخ سنة 1106 / 1695 نعثر على أسماء أصحاب بعض السفن مثل فرقاطة القبطان أحمد التونسي وفرقاطة القبطان أحمد الطرابلسي. وبالرجوع أيضا إلى دفتر قبطان الغليون في "الترسخانة العامرة" نجد أسماء مثل القبطان علي التونسي وسليمان الجزائري وغيرهم من رياس البحر المنتمين إلى أوجاق الغرب⁵⁴.

⁴⁹ مهمة دفترى، دفتر عدد 78، ص 62، حكم مؤرخ بسنة 1108 هـ / 1696 م. يوجد أيضا حكم ثاني مؤرخ بسنة 1102 هـ / 1690 م، أرسل إلى الداى شعبان يأمر فيه السلطان بارجاع الأسرى وكل ما تم قرصنته من السفن الفرنسية.

⁵⁰ Kara Çelebi- Zâde Abdülaziz Efendi, 2003, p. 305.

⁵¹ الوزير السراج، 1984، ص 408.

⁵² ابن أبي دينار، 1967، ص 211.

⁵³ الوزير السراج، 1984، ص 397.

⁵⁴ Bostan, 2010, p. 209 – 212.

لم يكتف قراصنة أوجاق الغرب بفتح قلاع كندية وخانية جزيرة كريت فحسب بل قدموا على مد يد المساعدة مرة أخرى لفتح قلعة "كاسترو" بعد طلب السلطان محمد بن السلطان إبراهيم، فقد ذكر الوزير السراج أنهم "سارعوا وشرعوا القلاع وسفروا وأسفر لهم النصر عن وجه عزم يشير اشراقه بما ظفروا. وانخرطوا في العمارة العثمانية وانتظموا في سلك العساكر الخاقانية ونزلوا في جزيرة كاسترو في غرة حجة الحرام سنة 1077 / 25 ماي 1667 ... وفي السنة الثانية من محاصرتها عادت سفن تونس إلى الجهاد"⁵⁵.



الصورة 2، غليون عثماني، 1720 م. منمنمات سورنامة، متحف قصر الطوب كاي، ورقة أ، 3549 - 142 أ.

لقد كان للفوز في فتح قلاع جزيرة كندية وقع كبير على الإيالة التونسية، بالرغم من وفاة أحمد خوجه داي سنتين بعد بداية الحرب 1057 / 1647 ، فقد احتفل الداي مصطفى لاز بهذا الفوز " وكانت الزينة العظيمة المشهورة عندما جاءت البشارة بأخذ إقليم من أقاليم الكفر وهي كندية"⁵⁶.

كما كان لهذه الحرب وقع كبير في تعيين الداي مامي جمل دايا على تونس فقد كان من جملة المحاربين الذين سافروا من تونس نصره للعثمانيين في حرب كندية وحصل بذلك شرفا عظيما. ومن بين ما دون الوزير السراج في هذا الصدد هو أن الداي مامي جمل " حصلت [له] فيها المزية العظمى التي ما حصلت لأحد من العساكر غيره، وذلك أنه كان بيده راية عسكر تونس فتقدم أمام العساكر الثلاثة ونصبها وكانت بقدر الله السبب المبارك في النصر والفتح. وفاز بذلك المشهد بالفخار المؤبد "⁵⁷.

⁵⁵ الوزير السراج، 1984، ص 319.

⁵⁶ الوزير السراج، 1984، ص 417.

⁵⁷ الوزير السراج، 1984، ص 448.

3. مآثر الداوي أحمد خوجه

2.3. في تونس المحروسة

لقد قام الداوي أحمد خوجه في فترة حكمه الممتدة بين جويلية 1640 إلى جويلية 1647 ، بإعطاء الأوامر لتشييد وترميم بعض المعالم بمدينة تونس . بدأ أولا بترميم المدرسة العنقية التي كانت خرابا ولا نعرف هل إستوعبت المدرسة العنقية تأثيرات الوقت أم أن الأمر اقتصر على ترميمها كما هي بيد عاملة محلية. كما تذكر المصادر أن الداوي أحمد خوجه قام أيضا بصيانة المدرسة الشماعية ونظّم بها درسا وجعل عليه الشيخ أبو عبد الله أحمد برناز وأصبح المكان المفضل للداوي لإقامة صلواته. أيضا يحسب لأحمد خوجه بناء برج ثان في مرسى حلق الواد بعد الهجوم التخريبي الذي قام به المالطيون والأنقليز، وذلك لتحصين المرسى من الهجومات وضربات المدافع فلم يكن البرج الأول الحربي كافيا لرد تلك الضربات المدفعية. لكن هذا البرج لم يبق له أثر ويبدو أنه هُدم مع تهديم السور أو أثناء ضربات القرن التاسع عشر والدمار التي تزامنت مع الحرب العالمية الثانية.



الصورة 3 . تربة الداوي أحمد خوجه بمدينة تونس نهج سيدي بن زياد، سنة 1647. المصدر: صورة زاهر كمون

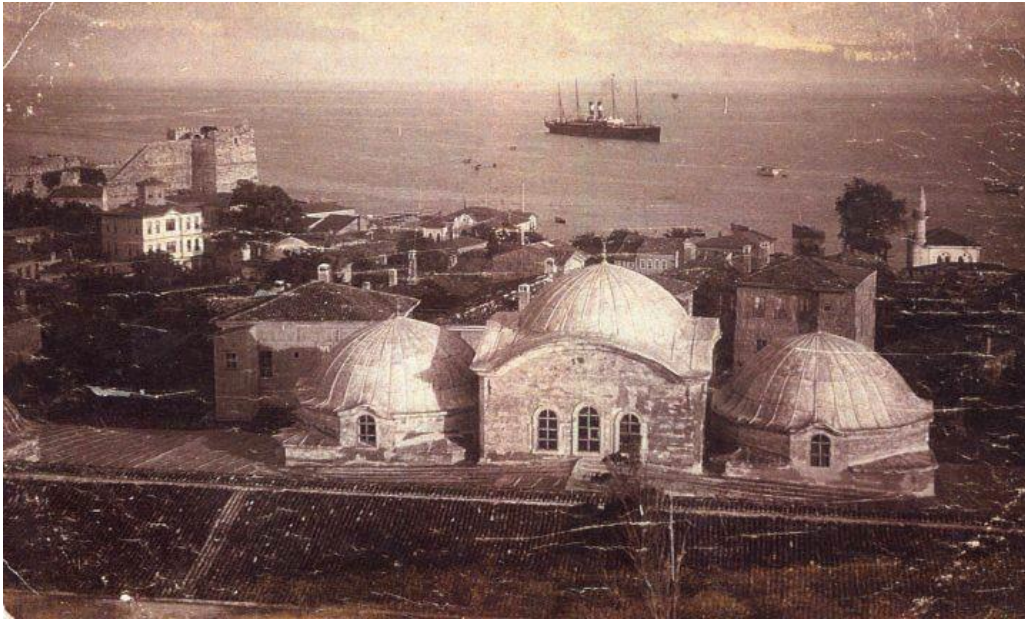
خلافا لتربة الداوي أحمد خوجه (الصورة 3) التي تحمل نقيشة تأسيس مؤرخة بنفس سنة تاريخ وفاته، والتي خصّها الأستاذ أحمد السعداوي بدراسة دقيقة، فإن دفاتر أحباس المراديين والحسينيين أشارت إلى بعض أملاك الداوي أحمد خوجه بتونس وإلى بعض أحباسه وأملاك وراثته. نخص بالذكر أرض القالة ببنزرت المعروفة بالحاج موسى بن الداوي أحمد خوجه، وهنا نلاحظ أن للداوي أحمد خوجه ابنٌ ثانٍ قام بتسميته على اسم أبيه "موسى" الذي سنتطرق إليه لاحقا. كما كان على ملك ورثة الداوي وجميع الأرض الكائنة برمل سيدي سليمان والمحاذية لأرض الصفصافة. أيضا جميع نصف السانية بشطرانة قرطاجنة التي هي حبس من أحباس محمد شلبي ابن الداوي أحمد خوجه⁵⁸. امتلك الداوي أحمد خوجه أيضا "حقا" أي عقارا بالمكان المعروف بالكبابجين من مدينة تونس المحروسة، وجزءا من وقف قرب تربته بسوق البشامقية وسوق الترك بقي على حاله إلى حدود أوائل صفر الخير من عام ثمانية عشر ومائة وألف الموافق لـ 14 ماي 1706⁵⁹.

⁵⁸ أحمد السعداوي، 2011، ص 143، 270، 326.

⁵⁹ أحمد السعداوي، 2015، ص 204 - 205، 352.

2.3. في مدينة سينوب بتركيا

تذكر وثائق أرشيف سجلات المحكمة الشرعية المحفوظة في أرشيف متحف مدينة سينوب والمتكوّنة من ثلاثة وثائق مؤرخة بالقرن الثامن عشر أن المدعوة فاطمة بنت عليّ شاوش تقدمت بشكوى لمحكمة مدينة سينوب تطلب فيها حق التصرف في أموال وقف الداوي أحمد خوجه المتمثل في مقدار من المال خُصص لصيانة قنوات صرف مياه الجامع الكبير بسينوب، المعروف بجامع علاء الدين كيقباد (الصورة 4 و5). لكن وكيل الوقف المدرّس قيوم زاده تشبّث بغلّة الحبس وقال أنه وقف على الجامع ومنع المدعوة فاطمة بنت عليّ من التصرف فيه وإدّعى أنها ليست من نسل داوي تونس⁶⁰.



الصورة 4. صورة مأخوذة من صومعة الجامع الكبير لمدينة سينوب سنة 1890. المصدر: أرشيف مكتبة كمال أتاتورك.

ذكر اسم الداوي في وثائق الوقف بشككين فالوثيقة الأولى تذكر الداوي (Tunus dâisi Ahmed Bin Mûsa) أحمد بن موسى والوثيقة الثانية ذكرته باسم أحمد بن موسى الكاتب داوي تونس (Tunus dâisi bin Mûsa yazıcı). وحسب ما ورد في الوثيقتين فإن فاطمة بنت عليّ شاوش تكون إبنة إبنة راضية، عمّة الداوي أحمد⁶¹. حكمت المحكمة في البداية لصالح وكيل الوقف المدرّس قيوم زاده وذلك لأن فاطمة لم تثبت نسبها إلى الداوي أحمد خوجة الذي توفي في تونس، كما أن شهادة بعض أهالي حي جامع سينوب لم تأخذ بعين الاعتبار. التجأت فاطمة بمطلب إلى الديوان الهمايوني باسطنبول عن طريق عريضة تُعرف بتسمية "عرض حال"، وأعادت فتح قضية في تمسكها بالتصرف في حقّها من وقف ابن أخ جدّها. فأرسل أعضاء المحكمة الشرعية بالديوان الهمايوني أمرا بمحكمة سينوب لإعادة فتح الملف والتأكد من حق فاطمة في التصرف في وقف الداوي أحمد خوجه وذلك بعدما تأكد لدى شيخ الإسلام السيد مصطفى أفندي أن وثيقة الوقف التي بحوزة فاطمة هي نافذة وصحيحة لا تشوبها شائبة. أصدر الديوان بتاريخ 14 رمضان 1157 / 21 أكتوبر 1744، قرارا يعرف بـ"البرات العسكري" مختوما بختم شيخ الإسلام جاء فيه أن فاطمة هي إبنة

⁶⁰ Ibrahim G., 1990, p. 65 – 78.

⁶¹ Güler, 1990, p. 67.

لإبنة عمّة الداى أحمد خوجه وأنه حسب الشروط المذكورة في عقد التحبّيس لها الحق في التصرف في المقدار المالي ولا يجب أن يتعرض لها أحد وأن لا يبدّل مضمون الوقف.

حسّم هذا "البرات العسكري" الأمر لصالح فاطمة ودعّم مطلبها لدى قاضي محكمة سينوب. لكن كاتب المقال الأستاذ إبراهيم قولار اعتبر أنّ إنصاف فاطمة في القضية ومساندة أعضاء الديوان الهمايوني لها أمر غير شرعيّ بقوله "أن فاطمة التجأت إلى طرق غير شرعية وقد شهدنا في المحاكم الدولة العثمانية منذ بداية القرن الثامن عشر، فساد عديد من القضاة وأن الحكم الصادر من شيخ الإسلام مشبوه فيه".



الصورة 5. الجامع الكبير بسينوب. المصدر: صورة التقطها مصطفى جانباز

لكن الكاتب إبراهيم قولار لم يتفطن إلى أنّ الصيغة الشرعية للوقف هي مغايرة لما هو معروف لدى الأتراك. وتسرع في تأويل الوثائق⁶². إلا أنّ الأمر لا يبدو كذلك فبالرجوع إلى الثبّت من وثائق المحكمة الشرعية التي نشرها الكاتب في مقاله تبين لنا أنّ فاطمة تستحق فعلاً، حسب رأينا، التصرف في وقف الداى أحمد خوجه، وذلك للمعطيات التالية :

أولاً، لقد كان لرجال الدولة العثمانية القدرة الكافية للثبّت من صحة نسب فاطمة وذلك للعلاقة التي كانت تربط آغاوات الديوان بداي تونس أحمد خوجه، فمسألة طلب العون منه في حرب جزيرة كريت لوحدها خير دليل على حضور الداى خوجه في مجلس وزراء الديوان العثماني، ومعرفة ابن من يكون ومن هم أفراد عائلته لم يكن بالأمر الخفي عنهم. وتمكّن فاطمة من "برات عسكري" هو دليل على انتسابها لعائلة الداى الذي كان يملك امتيازات تخص فئة العسكر الهمايوني.

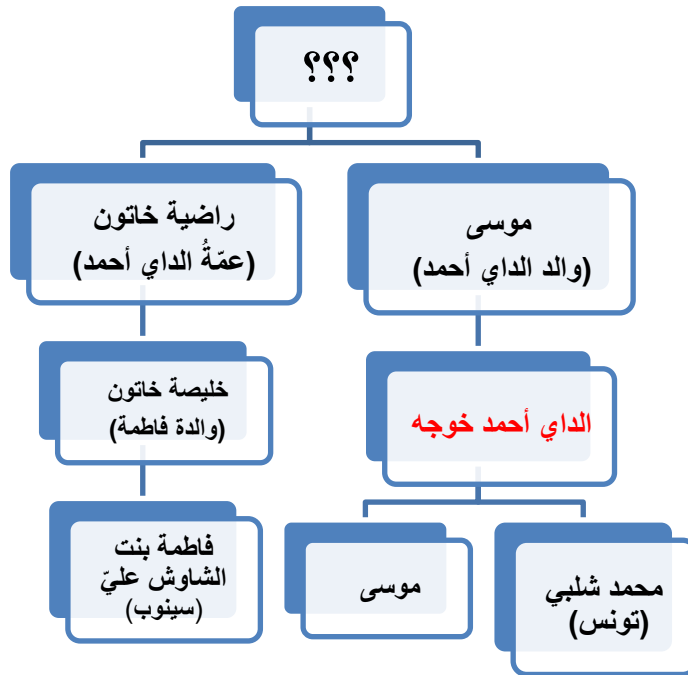
ثانياً، يمكن القول أنّ الداى أحمد خوجه كان على مرتبة عالية من الذكاء فقد خطّ الوقف الذي خصّصه لصيانة مياه صرف الجامع الكبير بسينوب على أسلوب صياغة الوقف في القطر التونسي. وجدنا في الوثائق العثمانية بعض الإشارات التي تدعّم هذا وتوضّح صحة تصرف فاطمة في الوقف منها مثلاً ما ورد في "البرات العسكري الهمايوني" : " هذا حكم

⁶² Güler, 1990, p. 73.



النیشان الشريف، هذا الحكم الرفيع التوقيع والرفيع الشأن الخاقاني، يؤكد أن فاطمة خاطون التي تقدّمت للديوان الهمايون بعرض حال، هي من أقرباء داي تونس أحمد بن موسى ولها الحق أن تتولى بموجب التصرف في نقود الوقف حسب ما جاء في وقف جدّها بسينوب...⁶³. وفي إشارة أخرى وردت على لسان فاطمة، ووثقت في وثيقة السجل الشرعي لمحكمة سينوب، تقول فاطمة : "والمسؤولة على نقود الوقف هي راضية، والدّة أمي خليصة خاتون، وراضية هي شقيقة موسى والد أحمد، داي تونس، ونظرا لشرط المحبس أن يتولى أولاد أولاد خليصة التصرف في نقود وقف الداوي، أنا أطلب أن يتم تسليمي هذه النقود وجعلها تحت تصرفي...⁶⁴".

إذن رغم عدم توصّلنا لنسخة وقف جامع سينوب الذي خصّصه الداوي أحمد خوجه من ماله، فإننا نقرّ من خلال هذه الإشارة الواردة في مقدمة "البرات العسكري" ومن خلال ما ورد عن لسان فاطمة، أنّ هذا الداوي تعمّد صياغة الوقف على أسلوب كتابته في تونس، وهو الأدرى بذلك، فقد سبق له التعامل مع مؤسسة الأوقاف ومعرفة خصوصياتها ومنافعها بتونس. ويبدو أنه انتهج ذلك ليضمن استمرارية الإرث لأولاده من الذكور والبنات وأقربائه، وحسب ما يفهم من الوثائق، والذي لم يذكر صراحة، أنه كلف عمته راضية التي لازلت تقطن آنذاك بسينوب بالمراقبة والتصرّف في نقود الوقف في غيابه، كما لا نستبعد أنه اشترط في الوقف أن تعود هذه النقود إلى أولاد عمته وذريّتها للانتفاع بها في غياب أولاده وعقبه بسينوب. وهذه الخصائص التي تميّز الوقف التونسي وتجعل العقب ينتفع قبل المؤسسات نصّت عليها أغلب الأحباس الخاصة في الإيالة التونسية في العصر الحديث، والتي يمكن لها أن تحدد المنتفعين بالوقف قبل المؤسسات الخيرية وأن يمر ذلك الانتفاع إلى ذرية المحبس.



رسم توضيحي 1. شجرة عائلة الداوي أحمد خوجه. المصدر: من إنجاز الكاتب اعتمادا على الوثائق العثمانية.

⁶³ "Nişân-i Şerîf-i âlişânın hükmü oldur ki, İşbu râfi'î tevki'-i refi'üs-sân-ı hâkânî evlâddan Fatıma Hatun dîvân-ı hümayunuma arz-ı hâl sunup Sinob'da vâkı' ceddî Tunus dâisi merhum Ahmed bin Musa vakfının ber-mûceb-i vakfiyye ve berât-ı âlişanım...". Güler, 1990, Annexe 3, p.75.

⁶⁴ "...Cami-i Kebir suyolları tamirine vakıf olan nukûd benim vâlidem Halise Hatun'un vâlidesi Raziye Hatun'un li-ebeveyn er karındaşı oğlu Tunus dâisi Ahmed vakfıdûp teveliyyetini evlâd-ı evlâdına şart etmekle ben evlâddan olmağla... nukûd-u vakf-ı mezkuru bana teslim olunması matlubumdur...". Güler, 1990, Annexe n° 1, p. 74.



خاتمة

نستخلص من خلال هذه الورقات أن الوقوف على دراسة شخصية الداوي أحمد خوجه مكنتنا من محاولة الكشف عن بعض الجوانب الضبابية المتعلقة بطبيعة حكم الدايات ومسألة ولائهم وتبعيتهم للدولة العثمانية وذلك من خلال تعقب حيثيات ومعطيات مصدرية، منها ما هو جديد. ويظهر لنا من خلال ما تقدم أن فتنة أكتوبر سنة 1591 هي انقلاب في صلب مؤسسة العسكر التركي وليست بثورة، كما أن توضيح معنى تسمية داوي - التي لم تظهر البتة بعد هذه السنة - جعلنا نفهم أنه علاوة على أنهم يمثلون فئة من الانكشارية "الأورطه لر" ما تحت منصب "التشربجي باشي" هم فئة يتميزون بصفة رياس البحر القراصنة والمجاهدين المندمجين في صلب تراتبية العسكر الانكشاري في آن واحد. فقد جمع الجيش الذي توجه لتونس سنة 1574 بين استعمال ثنائي، القوة العسكرية البرية من المشاة "yaya" والقوات البحرية تحت إمرة الباشا - القبطان. كما أنه إلى حدود نهاية فترة "الدايلار" حوالي 1647 لا يزال الجهاز العسكري الذي يترأسه الداوي وآفة الإنكشارية تحت صولة وهيمنة مركز السلطنة العثمانية ويتلقى أوامره مباشرة من إسطنبول، في حين أن الباي أخذ في الأثناء يتحكم في محاور البلاد بقيادته للمحلة. ولن نبالغ البتة إذا ما اعتبرنا أن الدايات هم سلاح الأتراك للخوض في المعارك البحرية لتوسع نطاق الدولة العثمانية على حساب المجال البحري للبنادقة والمالطيين وجزر اليونان. وتعتبر معركة افتكاك قلعة كندية بجزيرة كريت أبرز مثال على هذا "التجديد" المتموقع في مناطق خارج أسوار القسطنطينية. هذه المعركة جمعت بين الانتقام والتحدى العسكري، ساهم فيها البحارة التونسيون وقراصنة أوجاق الغرب مساهمة كبيرة، حيث كان الفوز فيها حدثا لن ينسى في ذاكرة الدايات والحال أنها مثلت معيارا في انتخاب الداوي مامي جمل فيما بعد. كما تبين لنا في الآن نفسه أن الدايات بمولاتهم ومحاولة تركيزهم وتوثيقهم للنفوذ التركي للإيالة تدرجوا سريعا من أوليغارشية عسكرية تركية وقراصنة أثرياء إلى وضعية فقدان النفوذ والمكانة لصالح الباي الذي قام باحتواء مؤسسة الداوي وابتلاع صلاحياتها، وشخصية الداوي أحمد هي أحسن مثال على ذلك. كما أن صيرورة الأحداث ومرور الدولة العثمانية بأزمات حكم وتقتيل وفوضى حال دون تمسك الدايات بمنصبهم وشجع على بداية ظهور العائلات الملكية في إيالات أوجاق الغرب والرامية إلى تأسيس دويلات أخذت في الانزلاق التدريجي من قبضة الأتراك إلى الحكم الذاتي.

يعتبر الإطلاع على دراسات بلغات أجنبية في علاقة بالداوي أحمد خوجه وتحينها ونقدها، أمرا هاما خاصة عند تقفي مآثر الداوي من المنشآت والحسنة التي خصصها لمعالم دينية في مسقط رأسه. فبالرغم من الوضع المتري والوباء الجارف الذي وصفه ابن أبي دينار بالفناء الأعظم والغلاء المفرط الذي تعيشه الإيالة التونسية، نجد أن الداوي الثري يخصص مبلغا ماليا ضخما ليجعله وقفا على ترميم قنوات مياه جامع سينوب بتركيا وذلك لتعلقه بمسقط رأسه وأصوله التركية.



المصادر والمراجع

- أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، وثائق عثمانية بدفتر "المهمه-دفتر"، ملف عدد 101، 105: أحكام مؤرخة بسنوات 1690 - 1691 - 1694.
- ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم، 1967، *المؤنس في أخبار إفريقية وتونس*، تحقيق محمد شمام، تونس.
- ابن أبي الضياف أحمد، 2001، *إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان*، 8 أجزاء، تونس.
- البشروش توفيق، 1992، *جمهورية الدايات في تونس 1591 - 1675*، تونس.
- السراج محمد بن محمد الأندلسي، 1984، *الحلل السندسية في أخبار التونسية*، 3 أجزاء، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت.
- السعداوي أحمد، 2011، *تونس في القرن السابع عشر وثائق الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين*، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة وحدة البحث "المدن التاريخية التونسية والمتوسطية"، تونس.
- السعداوي أحمد، 2015، *تونس زمن حسين بن علي وعليّ باشا 1705 - 1756 وثائق أوقاف من العهد الحسيني*، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، مخبر الآثار والعمارة المغاربية، تونس.
- خوجة حسين، 1975، *ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان*، تحقيق الطاهر المعموري، تونس.
- التميمي عبد الجليل، 2006، "عثمنة إيالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء المهمة دفتر (1559-1595)"، في *المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية*، عدد 34، ص 19-185.
- هنية عبد الحميد، 2012، *تونس العثمانية بناء الدولة والمجال*، منشورات تير الزمان، تونس.
- CHERIF M.H., 1981, « La déturquisation du pouvoir en Tunisie : classes dirigeantes et société tunisienne de la fin du XVI^e siècle à 1881 », *Cahiers de Tunisie*, n°117-118, p. 118-191.
- BOSTAN I., 2010, *Osmanlılar ve Deniz, deniz politikaları teşkilat gemiler*, İstanbul.
- GALLAND A., 1810, *Relation de l'esclavage d'un marchand de la ville de Cassis à Tunis*, Paris, Ferra.
- Güler I., 1990, "Sinop'da Tunus Dayısı Vakfına dair 1744 - 1746 Tarihli bir Dava Dosyası", *Ondokuz Mayıs Üniversitesi, Eğitim Fakültesi Dergesi*, sayı 5.
- İlter S. A., 1937, *Şimali Afrika'da Türkler*, İstanbul.
- İnalcık H., 2016, *Devlet-i 'Aliyye, Tagayyür ve fesâd bozuluş ve kargaşa dönemi (1603 - 1656)*, İstanbul.
- KARA Çelebi- Zâde A., 2003, *Ravzatü'l-ibrâr Zeyli*, (yay. N. Kaya), Ankara.



MANTRAN R., 1959, “L ’évolution des relations entre la Tunisie et l’Empire ottoman du XVI^e au XIX^e siècle”, *Les Cahiers de Tunisie, Revue de Sciences Humaines*, Tome VII., année 1959, Institut des Hautes Etudes de Tunis.

RAYMOND A., 2006, *Tunis sous les Mouradites la ville et ses habitants au XVII^e siècle*, Cérès, Editions, Tunis.

SAADAOUÏ A., 2011, *Tunis : architecture et art funéraires sépultures des deys et des beys de Tunis de la période ottomane*, C.P.U, Tunis.

TEMIMI BLILI Leila, 2012, *Sous le toit de l’Empire, la Régence de Tunis 1535-1666. Genèse d’une province ottomane au Maghreb*, Script édition, tome 1, Tunis.